٤٧

(أحمد بن عليّ بن عبد الكافي بن يَحْيَى بن تَمام بن يُوسف ابن مُوسَى بن تَمام بن حَامِد بن يَحْيَى بن سَليم السُّبْكِي)(١)

أبو حامد، بهاء الدين. ولد بعد المغرب من ليلة العشرين من جمادى الآخرة سنة ٧١٩ تسع عشرة وسبعمائة، وأحضر على الحجار في الخامسة، وسمع على الدبوسي، والبدر بن جُماعة. وبدمشق على ابن الجزري، والمزّي وغيرهما. (قال الذهبي) في المعجم المختص: الإمام العلَّامة المُدرِّس. له فضائل وعلم جيد، وفيه أدب وتقوى. وساد وهو ابن عشرين سنة، وأسرع إليه الشيب فاتقى وهو في حدود العشرين. (قال ابن حَجَر): وكانت له اليد الطولى في علم اللسان، والعربية، والمعاني والبيان. وله (عروس الأفراح، شرح تلخيص المفتاح) أبان عن سعة دائرة في الفن، وله تعليق على الحاوي، وعمل قطعة على «شرح المنهاج» لأبيه. وكان أديباً فاضلاً متعبداً، كثير الصدقة والحجّ والمجاورة، سريع الدمعة قائماً مع أصحابه، وولي قضاء الشام عوضاً عن أخيه في سنة (٧٦٢) فأقام سنة. ولم يصنع ذلك إلَّا حفظاً للوظيفة على أخيه، ثم ولي قضاء العسكر، وكان شرع في شرح «مختصر ابن الحاجب» فكتب منه قطعةً لطيفةً في مجلد. ولو أتمه لكان عشرة مجلدات، أو أكثر. وقال والده الشيخ تقي الدين لما درَّس ولده هذا: [من البسيط]

دُروسُ أحمد خَيْرٌ مِنْ دُروسِ علي وذاكَ عِنْدَ علي غَاية الأمل

وكان من رحَّالي العالم، وكان أبوه قاضي الشام، فكثرت جهاته، واتسع ماله، لأنه ناب عن والده في جميع جهاته وضمَّ إلى ذلك وظائف عدة. وكان إذا مات مَنْ له تدريس أو نحوه سعى فيه لنفسه. (ومات) مجاوراً بمكة ليلة الخميس السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٦٣ ثلاثٍ وستين وسبعمائة، وله أربع وخمسون سنة وبعض أشهر.

٤٨

(السيد أحمد بن عليّ بن مُحسن ابن الإمام المُتوكِّل على اللَّه إسماعيل بن القَاسِم الصَّنعاني)

ولد تقريباً سنة ١١٥٠ خمسين ومائة وألف. واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب

(١) ترجمته في: الدرر الكامنة: ١/ ٢١٠؛ النجوم الزاهرة: ١١/ ١٢١؛ شذرات الذهب: ٦/ ٢٢٦؛ المنهل الصافي: ١/ ٣٨٥؛ كشف الظنون: ٧٧، ٦٢٥، ١٨٧٣؛ إيضاح المكنون: ٢/ ٧٢٨؛ الأعلام: ١/ ١٧٦؛ معجم المؤلفين: ٢/ ١٢؛ تاريخ الأدب العربي، فروخ: ٣/ ٨٠٧.

الخمسين من عمره. ثم قرأ عليّ في النحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والحديث، والتفسير، وأدرك إدراكاً كاملاً لا سيما في العلوم الآلية. وفهمه جيد، وفكره صحيح، وتصوّره حسن، وإدراكه كامل. وأكبّ على الاشتغال عليَّ نحو عشر سنين مع جماعة من الطلبة، ثم جرى بينه وبين بعضهم ما يجري بين أمثالهم من المنافسة فانزعج. ومع كثرة تخيّله ظنَّ أني مُؤثرٌ لمن نافسه عليه، فصار بعد ذلك يروي ما قد حفظه عني من اجتهاداتي الجارية على نمط الدليل التي يخالف ما عليه غالب من لا تمييز له. وكان لديه كتاب لي عارية أحسنت إليه بعاريته فرأى فيه بِخطِّي في مسألة الفرقة الناجية كلاماً مضمونه أنهم ليسوا بعض هذه المذاهب الإسلامية على التعيين، بل هم من تمسَّك بالشريعة المطهرة، واهتدى بهدي المصطفى ﷺ على أي مذهب كان، وفي أي عصرٍ وجد. ودفعت قول من قال إنهم فرقته، كما وقع لكثير من المتعصبين، فأقام هذا القيامة وما زال يعرضه على كل من له اشتغال بالعلم فلم يوافقه أحد على ذلك، فعاد يعرضه على المقصرين والعوام، ويوهمهم بأوهام لا حقيقة لها، فكادت تثور فتنة وقى اللَّه شرَّها. ثم طلبت منه إرجاع كتابي فما ساعد. كلّ هذا وله من الفهم والعرفان نصيب تامّ، وهو لا يخفى عليه خطأ نفسه، وبطلان ما زعمه، ولم يرع حق التعليم. وبعد ذلك ترك الاشتغال بالعلم، ولم يبق عليه من رونقه شيء. ورام أن يعود للقراءة عليّ فما ساعدته، وأرجع الكتاب المشار إليه بعد سنين، ومدحني بأبياتٍ، وأظهر الندم على ما سلف منه عفى اللَّه عنه. ومن جملة ما كتبه إليّ هذه القصيدة، وفيها إشارة إلى ما قدمته: [من البسيط]

يا قاضياً لَفْظ ماضٍ إذْ تَناوله ... زَهَا بِهِ كُلُّ مَنْقُوصٍ منَ الكَلِمِ[1]

وَلَمْ يَزلْ كلّ مَمْدودٍ يمدّ إلى ... ما نالَ عَيْنيْهِ منْ فخرٍ ومنْ كَرَمِ

وَكلُّ ما نالَ مقصورٌ عليْهِ فيا ... ذا المدّ أقْصِرْ ولا تطمعْ ولا تَحُمِ

فالاسمُ مرجعُ ما يحويه منْ شَرَفٍ ... إلى مُسمَّاه من نَعْتٍ ومنْ عَلَمِ

قاضٍ ببهجتهِ الأيامُ مُشرقةٌ ... كالشَّمْسِ لكنَّ نورَ الشمسِ لم يَدُمِ

فالحمدُ للَّه دُنيانا بِبَهْجتِهِ ... إشراقُها غيرُ مَسْلُوخٍ عنِ الظُّلَمِ

قاضٍ إذا جِئْتَهُ يوماً لقيتَ بهِ ... كلَّ الأفاضلِ منْ عُرْبٍ ومنْ عَجَمِ

يَخْشى الخصومُ ارتعاداً منْ مَهابتِهِ ... حتَّى كأنَّ بِهِمْ ضَرْبٌ منَ اللَّمَمِ[2]

لأنَّ ما أضْمَروهُ في فَرَاستِهِ ... مِنْ حُسْنِ إيمانِهِ نارٌ على عَلَمِ

(١) زَهَا زَهْواً، وَزُهُوّاً: تاه وتعاظم وافتخر.
(٢) اللَّمَمُ: الجنون.

كَمْ مِنْ أَلَدّ بِلا ما زالَ مُلتزماً ... مِنْ خَوْفِهِ عادلاً عَنْها إلى نَعَمِ[1]
فَالمُبتغونَ لغيرِ الحقّ في نِقَم ... مِنْهُ وكلّ مُحقٍّ منه في نِعَمِ
صَحِبتُهُ زمنَ التدريسِ مُقتطفاً ... منْ روضِ إمْلَاه نُورَ الحُكْمِ والحِكَمِ
فَكَانَ برّاً رَؤُوفاً بِي وَمُغتفراً ... لِزلّتي لم يُعاتبني ولَمْ يَلُمِ
أراه إنْ طالَ قَولي في بَشاعَتِهِ ... كأنَّه عنْ كلامي الغثِّ في صَمَمِ[2]
وغِبْتُ عَنْهُ زماناً واتصلتُ بِهِ ... في رتبةٍ هُو فيها صاحبُ العَلَمِ
قاضي قُضاة أميرِ المُؤمنين عَلَى ... يَمينِه قاعداً في الصَّدْرِ لَمْ يَقُمِ
فَقام تعظيمُهُ في صَدْرِ كلّ فتًى ... مُسلمٍ لِلأكُفِّ الطُّهرِ مُستلمِ
وَشاعَ تَعظيمُه في الناسِ ثمّ غَدَا ... عِنْدَ الْجنينِ كَرأي العَيْنِ في الرَّحمِ
وَمِثْلُ ذاكَ أعاديّ تَواتره ... فِينا وفي الغيرِ من مُستقبلِ الأُمَمِ
فما تغيَّر شيء كنتُ أعهدُهُ ... قبلَ التَّصدُّر في القاضي منَ السَّأَمِ
كأنه لِلنَّدامَى منْ تَواضُعِهِ ... على جَلالتِهِ منْ أصغرِ الخَدَمِ[3]
فقامَ ذاكَ دليلاً أنّ هِمَّتَهُ ... من فوقِ ذاك الذي يُعطي ذَوو الهِمَمِ
وَلوَ أحلّ الفَتَى في الناسِ رُتبتَهُ ... دَهْراً لأصبحَ ربَّ السَّيفِ والقَلَمِ
مُملَّكاً كلَّ أقليمٍ ونَاصيةٍ ... عُمَّالهُ في نواحي مِصْر والحَرَمِ
يا منْ يَرى أَنَّ نَظْمي قَدْ قضيتُ بهِ ... حقَّ المديح فَقدْ أخطأتَ فَاسْتقِمِ
لَيْستْ مُبالغتي فيهِ مُبالغةً ... ولا الغلوُّ غُلوّاً يا أخا الهِمَمِ
وَلو أتيتُ بأنواعِ البديعِ لَمَا ... قَضيْتُ حَقّاً وكانَ العَجْزُ مُلتزمي

وهو الآن في قيد الحياة، لعلَّه قد صار في ستين سنة من عمره. وله إليّ أشعار غير هذه، ومسائل سألني عنها، وأجبته بأجوبة هي في مجموع جواباتي. ثم توفي رحمه اللَّه لعلَّه في سنة ١٢٢٣ ثلاث وعشرين ومائتين وألف.

٤٩

(أحمدُ بن عليّ بن مُحمَّد بن أحمد طَشي الصَّعْدي)

ثم الرّداعي، ولد تقريباً سنة ١١٩٠ تسعين ومائة وألف، وقرأ في ذمار،

(١) الأَلَدُّ: الشديد الخصومة.
(٢) كلامٌ غَثٌّ: رديءٌ، قبيحٌ.
(٣) الندامى: الأصحاب على الشراب.